قراءة في كتاب

الاستعمار إبادة

تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية

أوليفي لوكور غرانميزون

أ. كريم مقنوش

مقدمة

قليل من الكتاب والمؤرخين الفرنسيين الذين كتبوا بموضوعية عن حقيقة الاستعمار الفرنسي للجزائر، خاصة إذا تعلق الأمر بالجرائم وما اقترفه الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري. في حقيقة الأمر ظهرت بعض الكتابات حول الموضوع إلا أنها قليلة، وفي الآونة الأخيرة ظهر كتاب فرنسي لمؤلفه أوليفي لوكور غرانميزون[1] وهوعمل أكاديمي يبرز فيه الأعمال الوحشية التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في الجزائر من إبادة، عكس ما كان يصرح به الفرنسيون على أنهم جاءوا ليمدنوا شعب بربري وهمجي.

تعريف المؤلف

أوليفي لوكور غرانميزون من مواليد 19 سبتمبر 1960 بباريس، وهو مدرس العلوم السياسية والفلسفة السياسية بجامعة إفري فال ديسون Evry-Val d'Essonne، وهو مؤرخ مختص في مسائل المواطنة للثورة الفرنسية، ومسائل في التاريخ الاستعماري. يدرس في القانون بجامعة مان Maine وهو عضو المجلس العلمي بجامعة إفري فال وأيضا عضو المجلس الوطني للجامعات.

له عدة مؤلفات منها "المواطنات في ثورة 1789 - 1794 وهي رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1991، وله أيضا "17 أكتوبر 1961، جريمة في باريس "وهو كتاب جماعي، وأيضا "الدساتير الفرنسية"، "الفلسفة والسياسة"، بالإضافة إلى مساهمات بمقالات في عدة مجلات متخصصة وعامة.

مضمون الكتاب :

إن قراءتنا للكتاب محل الدراسة يهدف إلى إبراز الأفكار الرئيسية التي طرحها للنقاش. ويعد كتاب الاستعمار إبادة من بين الأعمال الجادة التي نشرت باللغة الفرنسية ثم ترجمت فيما بعد باللغة العربية والتي تتميز بطابعها العلمي على غرار ما كتبه قبله من مؤرخين، بحيث تظهر القوة العلمية لهذا الكتاب في اعتماد المؤلف على مجموعة من المصادر الغنية والمتنوعة من وثائق أرشيفية معروفة وغير معروفة.

قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة بدون أن يلحقه بملاحق ذات علاقة بمضمون البحث، أو بمصادر ومراجع.

تطرق الكاتب في مقدمته إلى مختلف التحليلات والنظريات والنقاشات لمجموعة من المفكرين والمنظرين والسياسيين

الفرنسيين الذين حاولوا تقديم تبريرات لاحتلال الجزائر، وضرورة الاستعمار لأنه في نظرهم ضرورة قصوى لإعادة بناء الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية.

ما هي الوسائل التي استعملها الفرنسيون لتحقيق أمنيتهم ؟ بدون شك هدفهم في ذلك قتل الإنسانية في الإنسان الجزائري وإبادته نهائيا، فيلاحظ غاسباران [2] أن "**الإبادة** هي أول الوسائل التي يستعملها الاستعمار".

فكلمة " **إبادة** " جاءت في عنوان الكتاب ليس من باب الاستفزاز والجدل، بل لأن معظم الكتاب استعملوها عندما تطرقوا إلى صنيع المعمرين في القضاء على الأهالي.

ومن جهة أخرى احتدمت مواجهات كلامية في نوع المؤسسات التي تختارها الدولة الاستعمارية، هل تتجه فرنسا نحو نظام السيف الذي رآى فيه المعارضون ديكتاتورية، أم نحو نظام مدني تحترم فيه الحريات والحقوق.

ثم عرج المؤلف إلى ذكر بأن النصوص المعتمدة في الدراسة فهي متنوعة منها تاريخية وسياسية واجتماعية وحقوقية وأدبية وفلسفية، وفيها أيضا كتب موجهة للتعليم الابتدائي والعالي وقواميس مشهورة للتتبع تطور المفاهيم والممارسات في المجتمع بكل شرائحه. أما فيما يخص الهوامش فإن المؤلف ركز عليها من باب إثبات ما يجده القارئ من أقوال، وكل المعلومات المذكورة في البحث دقيقة إلا في بعض الحالات لغياب المعطيات حول بعض الأشخاص.

ففي الفصل الأول خصصه الكاتب عن "العرب" (ص33 - 117)، بحيث انطلقت أغلب شرائح المجتمع الفرنسي من مؤرخين وكتاب وفلاسفة وأطباء ومفكرين وفنانين كل تناول بإسهاب خصائص العربي من زاويته الخاصة ليضفي الشرعية لاستعمار

الجزائر، فسر الجنس العربي بأقبح الأوصاف والنعوت بأنه دائما على حاله لا يتغير مجبولا على الكسل والعنف ومفترس ونموذج للمجون الحيواني. وفي هذا السياق ذكر المؤلف مواقف كل من كارل ماركس [3] وإنجلز [4] حول الاستعمار في خدمة التاريخ العالمي، بحيث كانت لهما أحكاما مسبقة عن الأهالي، والتي تبرز مدى تأثرهما بالأفكار السائدة آنذاك. في حقيقة الأمر هناك عدة تفسيرات في هذا الباب من طرف مختلف المفكرين فمنهم من يبني تصوراته على أساس عرقي أو التفوق الاجتماعي، ومنهم على أساس حضاري، وآخرون اقتصادي.

كتب غافاريل [5] كتابا (600 صفحة) استعاد فيه تاريخ الاستعمار منذ القديم إلى التاريخ المعاصر وجهه للمدرسين وللطلبة والمتعلمين تناول فيه ملحمات فرنسا ضد العرب القراصنة في تحرير المسيحيين[6]. أصبح مرجعا أساسيا في تعليم الناشئة.

لم تقتصر هذه الأوضاع خلال فترة الاحتلال بل اتسعت حتى إلى فترة الثورة التحريرية، ففي 7 جانفي 1957 وزعت مجلة القوى البرية [7] منشورا بعنوان "هذه هي صورة الفلاقة" هي عبارة عن جرادة تحمل قناعا يحذرون بها الجزائريين على أنها تأكل وتدمر كل شيء فعليكم بها.

أما الفصل الثاني عنونه بـ" الحرب على العرب وحرب الأعراق" (ص 119 - 171)، ابتدأه المؤلف بمقطع يقول فيه رينان[8] سنة 1871 : "بأن التقسيم الذي حدث بين البشر إلى أجناس مختلفة لا يؤدي سوى إلى حروب لإبادة فيما بينها"، هذا إن دل على شيء فإنما يدل على الشرعية في استعمال الإبادة لانقباض الطبقة العليا، ويقنع الآخرين بأن الحرب الشاملة ضد العرب هي السبيل الوحيد للخلاص من المشاكل.

في حقيقة الأمر ظهر رأيان مختلفان فيما يخص موقفهما من الاحتلال فمنهم من يرى في هذا المشروع الخلاص والسيطرة وإعادة بناء المجد الضائع، وهناك من يرى التريث بسبب انهماك الجيش الفرنسي في الجبهة الأوربية.

أما دى توكفيل[9] كان من أشد المعارضين لفكرة خروج الجيش الفرنسي من الجزائر لأن ذلك سيسمح لبريطانيا بأخذ المكان الشاغر، واقترح بجذب المعمرين وبناء المستوطنات وتذويب العنصر العربي. من خصوصيات شخصية دى توكفيل أنه فهم قبل الكثير من نظرائه، خصوصيات الحرب في الجزائر لأنه يحسن المقاربة. لقد استقى معلومات لدى الضباط خلال سفره في الجزائر.

أما عن الكيفية في إدارة المجتمع الاستعماري فهناك نظرتان، الأولى ترى اقتراح إدارة مبسطة وأكثر استقلالية في الحكم، والرأي الثاني يرى نفس التنظيم السائد في فرنسا، أي دولة استعمارية مركزية وقوية. ثم ذكر المؤلف في كتابه مختلف الآراء المعلنة عن ميلهم إلى إبادة الشعب الجزائري في الجرائد والكتب، كانوا مقتنعين أن حرب الجزائر هي حرب الأعراق.

تطرق المؤلف في الفصل الثالث إلى قضية " الحرب الاستعمارية" (ص 173 - 251)، الذي استهلها بسياسة بوجو [10] عندما تحدث في 15 جانفي 1840 عن تدمير الجنسية العربية وقوة الأمير عبد القادر وفرض السيطرة المطلقة لإخضاع الجزائر، وكأن فرنسا انتظرت عشر سنوات تردد لتطبيق هذه السياسة والمتمثلة في " السيف والمحراث".

أما عن خصائص الحرب في الجزائر فقد تناولها بالتفصيل الدقيق عما كان يرتكبه الجيش الفرنسي من تقتيل وحرق القرى وتدمير وتجويع القبائل وترهيب السكان وتعذيبهم، بالإضافة إلى

إعدامهم بدون محاكمة، وانتهاك المقابر وتدمير أماكن العبادة، فتلك الممارسات أدت بالضرورة إلى تناقص عدد السكان. يذكر المؤلف أنه في خضم اثنين وأربعين سنة (1830 - 1872) انخفض عدد السكان في الجزائر إلى 2125000 بعد أن كانوا 3 ملايين أكثرهم مدنيين [11].

دعم غرانميزون هذا الفصل بتقديم كتاب لجوزيف كونراد " في قلب الظلمات" وهو عبارة عن رواية واقعية تحكي بصورة جلية عن المجازر والتدمير والتعسف الاستعماري المرتكب في الجزائر وباقي القارة الإفريقية.

وبناءً على ذلك أكّد أغلب العسكريين والسياسيين أن الاستيطان الناجح مع شعب مثل العرب لا يوجد غير حل واحد وهو الإبادة فهي أبسط طرق الاستعمار. واقترحوا بأن تكون إبادة العرب بشكل كامل بدون استثناء.

أما فيما يخص الفصل الرابع المعنون بـ " الدولة الاستعمارية حالة استثناء دائمة"(ص 253 - 346)، استفتح المؤلف بقول جيرولت [12] سنة 1903 : " لا يليق في المستعمرات إلا حاكم مستبد ومستنير". [13]

يجو في رسالة موجهة إلى وزير الحرب في أفريل 1845 تقتضي الإبقاء على نظام الاستثناء، وبين مناصري النظام المدني المتمثل في رأي دى توكفيل في تقرير رسمي وجهه إلى البرلمان سنة 1847 يقول فيه :" يبدو لي أن سيطرتنا في إفريقيا قد تجاوزت كل المخاطر" [14] (يقصد استسلام الأمير عبد القادر).

وتساءل المؤلف بدوره عن طبيعة الدولة الاستعمارية وأحكامها القانونية التي تأسست عليها ؟

في بداية الاحتلال كان النظام السائد في الجزائر مؤسس على حكم السيف، حجتهم في ذلك أن الوضع بما يحمله من تهديد دائم على الفرنسيين يقتضي الإبقاء على نظام استثنائي يخول صلاحيات واسعة للحكام ولا تخضع للقانون العام في فرنسا. بقيت هذه الوضعية الاستثنائية إلى غاية سنة 1944 ثم أعيد تطبيقها سنة 1955 عندما أعلنت حالة الطوارئ، وتركها الجنرال ديغول الأمور على حالها إلى الاستقلال.

ومن جملة الإجراءات التي اتخذها الحاكم العام هي الاعتقال الإداري، المسؤولية الجماعية، والمصادرة.

بقي دى توكفيل يدافع عن النظام المدني ومعارض لتسلط العسكريين في الجزائر ويسعي إلى إقامة نظامين سياسيين وقانونيين مختلفين، الأول يطبق على العرب والثاني على الأوربيين. ورأى وجوب تكوين مدرسة إدارية تساعد الأوروبيين على الاستيطان تخدم مصالحهم، بدل إحكام السيطرة في الحاكم العام، وأشار إلى وجوب تأسيس بلديات [15] تكون وسيطة بدل تمركز السلطة في الجزائر. وبالتالي دى توكفيل فضح بطريقة غير مباشرة جوانب من الدولة الاستعمارية.

ومن جهته حلل المؤلف مهمة الحاكم العام هي الحفاظ على الحالة التي تجعل من المعمرين مجموعة غالبة، ومن المستعمرين مجموعة مغلوبة، واستمرار حالة الاستثناء بغرض إبقاء سيطرة الأولى وخضوع الثانية.

ثم يختم في هذا الفصل باستنتاجه أنه لا يمكن الحديث عن الاستعمار دون التطرق إلى المسألة الاجتماعية.

وفي الفصل الأخير تعرض المؤلف إلى مسألة الدولة الاستعمارية مقابل الدولة الاجتماعية(ص 347 - 411)، بحيث يعتبر الملاحظين والمثقفين بأن الطبقات الفقيرة خطر على اجتماعي وسياسي. وبهذا انطلق بوريت بنظرة جديدة تمثلت في أنه ليس أعداء الحضارة كلهم خارج أوروبا، ورأى دى توكفيل أن ثورة 1848 لم تغير شيء في الوضع المتردي. وأكده ميشال شوفاليه [16] بحتمية استعمار الجزائر للتخلص من الفائض السكاني الذي أصبح داءً اجتماعيا وسياسيا، وهذا ما ذهب إليه الكثير من المفكرين الاقتصاديين والقانونيين، مع اختلافهم في الطريقة والإجراءات.

ويذكر المؤلف في ثورة جوان 1848 كيف قام الضباط بسحق المتظاهرين وقتلهم شر قتال، أليست السيوف التي غرقت في دماء الثورة الاستعمارية هي التي جاءت لقمع الثورة الاجتماعية ؟

وهكذا تحولت حرب للدفاع عن النظام إلى حرب إبادة قادها ضباط فرنسيون بكل حماسة، إنها بربرية متوحشة بالنسبة لهيجو [17]، وحرب شاملة بالنسبة لبيجو.

قامت حكومة كافينياك [18] بنفي المتمردين إلى الجزائر، فكان النفي بمثابة العقوبات المسجلة في القانون.

ويختم المؤلف كتابه بقول إيمي سيزير [19] : "وبعد أن نقضت أوروبا كل المعاهدات ونشرت كل الأكاذيب، وعاقبت كل المساجين وغير المساجين، وعذبت كل الوطنيين، ماذا نجد بعد كل هذا التغطرس والتكبر العنصري الذي عاشت به فرحة؟ نجد سم التوحش الذي يتسلسل ببطء في أعضاءها وعروقها.

القيمة العلمية للكتاب :

تكمن أهمية الكتاب في كونه اعتمد المؤلف أوليفي لوكور غرانميزون في هذا البحث على مجموعة كبيرة من الوثائق غير

معروفة أو قليل من يعرفها وأخرى منسية، كما اعتمد على نصوص أدبية، فجاء بحثا متميزا ومتحررا من التحديات المنهجية.

وفي نفس الوقت جاء الكتاب متزامنا مع الضجة الإعلامية التي أثيرت حول قانون 23 فبراير 2005 المجد للاستعمار [20]، وجاء يضفي طابع الفضيحة لدولة ادعت الحضارة والتحضر.

الخاتمة

تجدر الإشارة أن الحكومة الفرنسية قامت بفتح ملف الجرائم، واستطاع جلادوها أن يقنعوا الرأي العام العالمي ويحاكموا كلوز باربي Klaus Barbie الجلاّد النازي المكلف بمهمة تعذيب سكان منطقة ليون.

وعلى هذا الأساس فالحكومة الجزائرية يجب عليها أيضا أن تفتح ملف التعذيب الذي عانى منه الشعب الجزائري أثناء فترة الثورة التحريرية، كما فتحت فرنسا من جديد ملفات قيسطابو الأربعينيات، وقامت العدالة الفرنسية في جوان 1987 بمحاكمة باربي على جرائمه اللاإنسانية أثناء الحرب العالمية الثانية.

الهوامش والإحالات

[1] - صدر عن منشورات الرائد كتاب من الحجم الكبير يحتوي على 423 صفحة باللغة العربية حول" الاستعمار إبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية"، قامت بترجمته نورة بوزيدة للعنوان الأصلي"

Coloniser Exterminer sur la Guerre et l'Etat colonial لمؤلفه أوليفي لوكور غرانميزون والكتاب صدر عن منشورات فايارد بباريس سنة 2005.

[2] - غاسباران (1810 - 1871) : عضو في مجلس الدولة ونائب مدينة باستيا.

[3] - كارل ماركس : 5 **مايو** 1818 إلى14 **مارس**1883 كان **فيلسوفًا ألمانيًا**، **يهودي** الأصل، **سياسي**، وصحفي ، **ومنظّر اجتماعي**. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة **بالرأسمالية** وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس **الفلسفة الماركسية**، ويعتبر مع صديقه **فريدريك إنجلز** المنظرين الرسميين الأساسيين **للفكر الشيوعي**. شكل وقدم مع صديقه **فريدريك إنجلز** ما يدعى اليوم **بالاشتراكية العلمية** (الشيوعية المعاصرة). أقام ماركس وإنجلز علاقات مع المنظمة الألمانية السرية المسماة "عصبة الشيوعيين" التي عهدت لهما بعرض المبادئ الأساسية للاشتراكية التي صاغاها. وهكذا صدرا في سنة 1848 بيانهما المشهور : "بيان الحزب الشيوعي".

[4] - فريدريك إنجلز 1820 - 1895 : من موايد ألمانية ويعتبرصديق **ماركس** وزميله، وضعا سوية **الفكر الماركسي**. عكف إنجلز، منذ أول عهده، على دراسة المشكلات الفلسفية الأخلاقية في إطار نقد المجتمع الطبقي، والبرجوازي. قام بتأليف عدة مؤلفات "حالة الطبقة العاملة في إنجلترا" (1845)، و" العائلة المقدسة أو نقد النقد " (كتبه مع ماركس) (1844).

[5]- غافاريل (1843 - 1920) : أستاذ التاريخ في كلية الآداب في مدينة ديجون ونائب رئيس معهد الجغرافيا بمرسيليا، له مؤلفات (الجزائر، تاريخ، غزو واحتلال).

[6]- أوليفي غرانميزون، الاستعمار إبادة، دار الرائد، الجزائر، 2008، ص 42.

[7]- مجلة للجيش الفرنسي أعدته الأقسام المختصة في العمل السياسي والنفسي.

[8]- أرنست رينان (1823 - 1892) : مؤرخ وكاتب فرنسي، فهو رمز من رموز فرنسا الجمهورية العلمانية القومية، معروف باحتقاره للإسلام، وهو مستشرق من كتبه(مستقبل العلم) (تاريخ نشأة المسيحية).

[9]- ألكسي دي توكفيل : من مواليد 29 جويلية 1805 بباريس، هو رجل سياسي ومؤرخ وكاتب مشهور بتحاليله للثورة الفرنسية، كان عضوا في اللجنة البرلمانية المكلفة بدراسة مشروع قانون يتعلق باستعمار الجزائر، كما اعتبر من المختصين في الشؤون الخارجية وفي القضية الجزائرية. توفي في كان 16 أفريل 1859، له عدة مؤلفات (الديمقراطية بأمريكا) (إصلاح نظام السجون) (عمل حول الجزائر) (ذكريات) (الأعمال الكاملة).

[10]- بوجو1784 - 1849 : ايرلندي الأصل، رقي إلى رتبة ماريشال سنة 1843، بدأت مغامرته العسكرية في الجزائر منذ 1836 مع الأمير عبد القادر، عين حاكما عاما من سنة 1840 إلى ديسمبر 1847. طبق ما يسمى بسياسة الأرض المحروقة. له عدة مؤلفات (الاحتلال العسكري في عهد بيجو) (بالسيف والمحراث).

[11]- أوليفي غرانميزون، نفسه، ص 237.

[12]- جيرولت : مدرس قانون في جامعة بواتييه قبل أن يصبح أستاذا مشهورا عالميا، كان يساهم في جريدة Libairtaire انضم إلى الحزب الشيوعي، وكان عضوا نشطا في اللجنة التنفيذية للإنقاذ الأحمر الدولي 1925.

لـه كتـاب " مبـادئ القـانون الاسـتعماري" الصـادر سـنة 1895، (الأهـالي الجزائريين، حالتهم المدنية والقانونية).

[13]- أوليفي غرانميزون، نفسه، ص 253.

[14]- نفسه، ص 255.

[15]- تأسست البلديات بموجب أمر صدر بتاريخ 28 سبتمبر 1847 بحيث يعين الحاكم العام مباشرة رئيس البلدية ومستشاريه.

[16]- ميشـال شـوفاليه (1806 - 1876) : هـو اقتصـادي وسياسـي ومـدير صـحيفة (Globe)، كـان يـدرس الاقتصـاد السياسـي في مدرسـة دي فرنس منذ 1840 وهو من تلاميذ سان سيمون.

[17]- فيكتور هوجو 26: **فبراير**1802 -22 **مايو**1885 ، هـو **أديب**، شـاعر، **رسـام** و**كاتب مسـرحي فرنسـي**، ومـن أبـرز أدبـاء **فرنسـا** في **الحقبة الرومانسية**. اشتهر بسبب أعماله الروائية، عـاش منفيـا 15 عامـا خـلال حكم **نابليون الثالث**، وتحديدا من عام 1855 حتى عام1870 ، أسس **جمعيـة الأدبـاء والفنـانين العالميـة** وأصـبح رئيسـاً فخريـاُ عـام1878 . وترجمـت أعمالـه إلى كـثير مـن اللغـات الحيـة، البؤسـاء (كتبهـا في المنفـى)، أحـدب نـوتردام، عمـال البحـر، وآخـر يـوم في حيـاة رجـل محكوم عليه بالإعدام، أشياء رأيتها 1830 - 1848.

[18]- كافينيـاك (1802 - 1857) : حصـل علـى مرتبـة نقيـب في سـلك الهندسة، ثم ملازما ستة 1826 عـاش أصداء ثورة باريس 1830، شـارك في الحملة على معسكر، ثم تلمسان. عيّن قائد فيلق 1837، ثن جنـرالا 1848، له مؤلفات (أيالة الجزائر، ملاحظات عن الغزو).

[19]- إيمـي سـيزر : تـوفي في 17 أفريـل 2007 في مسـقط رأسـه بجزيـرة المارتنيـك الفرنسـية في البحـر الكـريبي عـن عمـر ينـاهز 94 عامـا. كـان أبـا مؤسسـا لتيـار الزنجيـة في الأدب الفرنكوفـوني. احـتفظ بمقعـد في البرلمـان الفرنسـي مـن 1945 إلى 1993. نـاهض طيلـة حياتـه

الاستعمار والعنصرية وساند بقوة حركات التحرر الوطني في إفريقيا والعالم العربي. له عدة دواوين شعرية ونصوص مسرحية وكتبا فكرية من بينها (خطاب حول الاستعمار).

[20]- حول قانون 23 فيفري 2005، أنظر، كلود ليوزو وجيل منصرون، الاستعمار والقانون والتاريخ، تر، بشير بولفراق، دار القصبة للنشر، 2007.